



ملاح النصية في تفسير القرآن الكريم

Textual features in the interpretation of the Holy Quran

د. عبد الكامل سعيداني*

تاريخ الاستلام: 2020-10-13 تاريخ القبول: 2020-12-19

ملخص: البحث عن ملاح النصية في تفسير القرآن الكريم، هو غاية هذا العمل ومؤشرات الظاهرة النصية القابعة في هذا الخطاب المتميز، هي الهدف المنشود. وبفضل هذه الدراسة، قد توصلنا إلى الاستنتاج التالي: أن ملاح النصية تتجلى في تفسير القرآن من خلال المعرفة الخلفية، وأدوات الاتساق والانسجام، والمناسبة والتناسب والتكرار، والإحالة والترتيب، والوصل والفصل، والمجمل والمفصل... وبفضل ذلك جاء خطاب التفسير متماسكا منسجما له دلالات واضحة، يؤدي وظيفة التواصل بامتياز.

كلمات مفتاحية: نصية، سياق، انساق، انسجام، إحالة.

Abstract: The search for textual features in the interpretation of the Noble Qur'an is the goal of this work, and the indications of the textual phenomenon that reside in this distinguished discourse are the desired goal.

Thanks to this study, we have reached the following conclusion: that the features of textual interpretation are reflected in the interpretation of the Qur'an through background knowledge, tools of consistency and harmony, fit, proportion and repetition, referral and arrangement, connection and separation and the outline and detail ... Thanks to that the discourse of interpretation was coherent and has connotations Clear communicative par excellence.

Key words: text, context, consistency, alignment, referral.

*جامعة بن عكنون-الجزائر2. الجزائر، البريد الإلكتروني:

(المؤلف المرسل). saidaniabdelkamel@gmail.com

مقدمة: خدم أسلافنا كتاب الله تعالى تبياناً وتفصيلاً لآياته وإظهاراً لبلاغته وإيضاحاً لإعجازه وإبرازاً لما حواه هذا الكتاب المجيد من تشريع وتهذيب، وأحكام وأخلاق، وتربية وتوجيه... وقد خدمه علماء اليوم بتيسير فهمه على الناس بأسلوب واضح، وبيان ناصع، لا حشو فيه ولا إطالة، ولا تعقيداً ولا تكلفاً، وأبرزوا ما فيه من روعة الإعجاز والبيان وبما يتفق وروح العصر الحديث، ويلبي حاجة المتعطشين إلى علومه ومعارفه المختلفة. والنص ما هو إلا وحدة دلالية كبرى، لا تتحقق نصيته إلا إذا اعتمد على جملة من الوسائل تسهم في وحدته الشاملة، وتماسكه وتعطيه دلالة منها: العطف، التكرار الإحالة الاستبدال، الحذف العموم والخصوص، الجزء والكل المقارنة، المطابقة الاتساق والانسجام. والإشكالية المطروحة في هذه الورقة هي البحث عن ملاح النصية ومؤشراتهما في تفسير القرآن الكريم، والنصية هي مصطلح علمي حديث، تتجلى إرهاباته في التراث العربي سواء في الدراسات الأدبية كالبلاغة والنقد، أم في الدراسات القرآنية كعلوم القرآن وتفسيره وإعجازه وسيقتصر هذا البحث على ملاح النصية في تفسير القرآن الكريم، وقد لجأنا إلى المنهجين الوصفي والتحليلي كإجراء للموصول إلى الهدف المنشود من هذه العملية، وقد توصل البحث إلى حقيقة مفادها أن تفسير القرآن هو خطاب متماسك منسجم له دلالات بفضل ما احتواه من آليات النصية المذكورة آنفاً.

أهم ظواهر النصية في تفسير القرآن الكريم:

1-1-العطف: العطف لغة هو الميل¹، واصطلاحاً نوعان: عطف البيان، هو التابع الجامد الموضح لمتبوعه في المعارف، المخصص له في التكرات، نحو: جاء الأستاذ عمر في المعارف وقوله تعالى: "من ماء صديد" في التكرات، أمّا عطف التسق، فهو التابع الذي يتوسط بينه وبين متبوعه أحد حروف العطف نحو: تزدهر الحياة بالعلم والمال².

2-الجمل المعطوفة: يعتمد الوصل بين الجمل على الشراكة والتجانس بينها وعلى وجوه جامعة تربط بين هذه الجمل كالتضاد مثلاً، أو الترادف أو المشاكلة أو التضم أو الكل والجزء أو العموم والخصوص، يشرح الرّمخشري ظاهرة عطف الجمل



من خلال الآية التالية: قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُوتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾³، ابتدأت الآية بالأمر وعندما نعود إلى ما قبلها من الآيات لا نجد أمراً يعطف عليه، والجواب عند الرّمخشري، في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَانْفِقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾⁴. فمسوّغ العطف بين الآية الأولى والثانية عند الرّمخشري هو الجهة الجامعة بين محتوى الوصفين وهي التضاد، فالأولى عقاب الكافرين والثانية ثواب المؤمنين.⁵ وفي رأيي أنّ فعل الأمر "بشّر" معطوف على فعل الأمر "فاتقوا".

1-3- تعدّد المعطوف عليه: عالج المفسرون ظاهرة تعدّد المعطوف عليه وأعطوا لها تفسيراً وتبريراً يوضحه الرّازي في الآية التالية: قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَاتَّخَذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾⁶ يشير الرّازي إلى أنّ "واتخذوا" معطوف على ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾⁷ والمعنى أنّه لما ابتلاه ربه بكلمات وأتمهنّ، قال له جزاء لما فعله من ذلك "إني جاعلك للناس إماماً" قال: "واتخذوا"⁸

يتّضح من شرح الرّازي، أنّ العطف لا يقتصر على الجمل اللصيقة ببعضها بل يتجاوز ذلك إلى الجمل البعيدة المفصولة عن بعضها بجمل أخرى، كما شهدنا في الآية الكريمة السابقة، ومنه فالعطف لا تكون غايته الرّبط الشكلي الذي لا معنى له ولا دلالة، بل يشكّل توليفات جمليّة تؤدي وظيفة التّواصل، وأنّ القدماء العرب لم تكن دراستهم تتمركز حول الجملة فحسب بل تجاوزتها إلى النّص.

1-4- الوصل بالفاء: تعرّض الرّازي للعطف بالفاء عند تفسيره للآية التالية: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾⁹ فقد تمّ عطف الأكل في هذه الآية على السّكن بالواو بينما عطف الأكل في سورة الأعراف على السّكن بالفاء، وقد دفعه هذا العطف إلى صياغة قاعدة في العطف السببي، حيث قال: كل فعل عطف عليه شيء وكان الفعل

بمنزلة الشرط، وكان ذلك الشيء بمنزلة الجزاء عطف الثاني على الأول بالفاء دون الواو¹⁰ كقوله تعالى: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾¹¹.

أما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾¹² فعطف (فكُلُوا) على (ادخلوا) بالفاء لما كان وجود الأكل منها متعلقاً بالدخول، فالدخول موصل إلى الأكل والأكل متعلق بوجوده، في حين أن الأكل لا يختص بوجوده بوجود السكن، فلما لم يتعلق الثاني بالأول تعلق الجزاء بالشرط، وجب العطف بالواو دون الفاء¹³. يتضح أن الرّازي يفرق بين العطف السببي الذي يتم بالفاء، وبين العطف غير السببي الذي يكون بالواو، ورغم أن الواقعة في الآيتين هي نفسها، إلا أنها في البقرة معطوفة بالواو، وفي الأعراف معطوفة بالفاء والذي جعل الثاني للسببية هو ورود الفعل الثاني معطوف بالفاء، ولهذا، سميت الفاء فاء الجزاء، أو الزابطة لجواب الشرط عند النحويين.

2-الإحالة: إن دور الإحالة سواء أكانت ضميرية، أم إشارية في تماسك النص، لا يخفى على علماء النص وتحليل الخطاب، سواء منهم القدامى أم المحدثون، ولهذا السبب اهتم مفسرو القرآن الكريم بهذه الظاهرة النصية، وأعطوها حقها في دراساتهم وأبحاثهم، إلا أن ما يميز أعمالهم، هو الانتباه إلى احتمال تعدد ما يحيل إليه الضمير، وما يشير إليه اسم الإشارة.

2-1-الضمير: الوصل الضميري وتعدد المحال إليه: يدرس الزمخشري هذه الظاهرة من خلال قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾¹⁴ ويشير إلى أن الضمير (الهاء) يعود على الصلاة، أو الاستعانة، أو على جميع الأمور التي أمر بها بنو إسرائيل أو نهوا عنها، من قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَإِنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾¹⁵ إلى الآيات السابقة، قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ نلاحظ هنا أن الإحالة الضميرية تعددت، حيث عاد ضمير (الهاء) في المرة الأولى على "الصلاة"، وفي الثانية على "الاستعانة"، وفي الثالثة أحيل إلى خطاب سابق يشمل خمس آيات



تتضمن: ذكر النعمة، الوفاء بالعهد، رهبة الله، الإيمان برسالة محمد، ألا يشتروا بآيات الله ثمنا قليلا، تقوى الله، ألا يلبسوا الحق بالباطل إقامة الصلاة، إيتاء الزكاة سلوك سبيل البر، وهي كما ترى تتراوح بين الأوامر والنواهي، وقد جاء بعضها متاخلا مع بعض¹⁶. يستنتج من تحليل الرّمخشري أنّ الإحالة الضميرية نوعان: إحالة إلى عنصر متقدم وإحالة إلى خطاب سابق بأكمله، وأنّ ضمير (الهاء) في تحليل الرّمخشري يحيل إلى الصلاة، أو إلى الاستعانة أو إلى خمس آيات سابقة، وفي رأيي يحيل إلى الصلاة فقط، لا غيرها والدليل هو القرينة اللغوية، أو الدينية إن شئت الدقة (الخاصين)؛ لأنّ علاقة الخشوع بالصلاة علاقة عضوية، بنيوية، كون الصلاة قد لا تقبل إلاّ بها.

2-2-الإشارة: هي أداة من أدوات الاتساق، وظاهرة إحالية متنوعة، تتراوح بين تعدّد المشار إليه وبين الإشارة إلى خطاب، يفسرها الرّمخشري من خلال الآية التالية: قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾¹⁷. إذ يقول: «(ذلك) إشارة إلى إحياء القتيل، أو إلى جميع ما تقدّم من الآيات المعدودة»¹⁸، فالإشارة إلى (القتيل)، هي إحالة عنصر إلى عنصر والإشارة إلى (الآيات المعدودة)، هي سبع آيات تتمحور حول ذبح البقرة وتحديدا من الآية 67 إلى الآية 74. إذن فنحن أمام إحالة إلى نص مكون من عدة آيات، وهو ما جعل الخطاب متماسكا من خلال ربط هذا العنصر الإشاري بما سبقه من آيات كثيرات، ومنه فالإحالة لا تقصر على عنصر واحد، بل تحيل إلى لفظ واحد أو جملة أو فقرة أو نص بأكمله، وهذا ما يؤكّد بوضوح أنّ العلماء القدامى، كان مفهوم النص أو الخطاب موجود في أذهانهم، والدليل هو توفر آليات التماسك، والتلاحم، عندهم واتساع نطاق عملها في مجال الربط القريب والبعيد سواء على مستوى الكلمة أم الجملة أم الخطاب برمته.

3-التكرير: لم يختلف مفسرو القرآن في أنّ التكرار ظاهرة أسلوبية من ظواهر تماسك الخطاب، وأداة من أدوات اتساق النصّ وانسجامه، وبالإضافة إلى هذا اعتنوا بدلالته.

تناول الرازي ذلك من خلال الآية التالية: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَإِنِّي فَضَنْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾¹⁹ يوضح قائلا: «اعلم أنه تعالى إنما أعاد ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾²⁰، تعتبر هذه الآية تكرارا للآية 47 السابقة من سورة البقرة لأن تذكيرهم بنعم الله وفضله عليهم هي دعوة ضمنية إلى التقوى، ومنه فالآية مكررة والغرض منها هو التأكيد، بالإضافة إلى ذلك فقد أسهمت هذه الظاهرة التكرارية في تماسك الخطاب وانسجامه، هذا الكلام مرة أخرى هو تأكيد وحجة عليهم وتحذير من ترك اتباع محمد والشك في الوعيد»²¹ وهو قوله تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾²² تعتبر هذه الآية تكرارا للآية 47 السابقة من سورة البقرة، لأن تذكير اليهود بنعم الله وفضله عليهم هي دعوة ضمنية إلى التقوى، ومنه فالآية مكررة، والغرض منها هو التأكيد بالإضافة إلى ذلك فقد أسهمت هذه الظاهرة التكرارية في تماسك الخطاب وانسجامه.

4-موضوع الخطاب: المقصود بموضوع الخطاب هو البنية الفكرية العامة

والقطب المحوري الذي تدور حوله جملة من متتاليات آياتية متماسكة، وقد تأتي طويلة أو قصيرة حسب طبيعة الخطاب وما يتطلبه من إيجاز وإطناب.

إن المفسرين لم يشيروا إلى وجود موضوع خطاب صراحة، ولكن تحليلاتهم وتفسيراتهم تكشف عن وجود مثل هذا المفهوم في أذهانهم ضمنا، وهم يمارسون التفسير والدليل قول ابن عاشور عن سورة البقرة: «هذه السورة مترامية أطرافها وأساليبها ذات أفنان ومعظم أغراضها تنقسم إلى قسمين: "قسم يثبت سمو هذا الدين على ما سبقه، وعلو هديه وأصول تطهيره النفوس، وقسم يبين شرائع هذا الدين لأتباعه وإصلاح مجتمعاتهم»²³، فابن عاشور قبل أن يفسر السورة قسمها إلى فكرتين رئيسيتين تتمحور حولهما جميع الآيات التي تحمل المواضيع الجزئية التي تشكل بنية السورة.

5-تنظيم الخطاب: يرى الرازي، أن تنظيم الخطاب تحكمه علاقة ثنائية العام

والخاص كموضوعات وقد يبدو ذلك جليا في تفسير سورة البقرة التي يمكن تحديد موضوعاتها كالتالي:

- الكلام في التوحيد والنبوة والمعاد؛
- النعم العامة بسائر البشر؛
- النعم الخاصة ببني إسرائيل؛
- النعم الخاصة بأسلاف اليهود؛
- قبائح أفعال اليهود مع الرسول (ﷺ)؛
- قبائح أفعال اليهود والنصارى والمشركين؛
- أحوال إبراهيم؛
- الأحكام.

يستنتج أنّ هذه المواضيع الجزئية منسجمة، وأنّ هذا التقسيم يؤكّد للقارئ أنّ علماء التفسير لهم دراية دون شك بمفهوم موضوع الخطاب، ومنه نصل إلى نتيجة مفادها أنّ خطاب تفسير القرآن محبوبك النّسج مرصوص البناء، متماسك الأجزاء مواضيعه مرتبة ومبنية وفق نظام محكم، يبدأ بالموضوع العام ثم يتدرّج من الخاص إلى الأخص، فالخطاب مثلاً: يبدأ بسرد النعم العامة لسائر البشر، ثمّ النعم الخاصة ببني إسرائيل. بالإضافة إلى ما سبق أنّ الرّازي يضع عنواناً لكلّ موضوع، ولكنّه يتتبع تفاصيله الخاصة آية آية، حيث يشير مثلاً: في النعم الخاصة ببني إسرائيل، وحين يحدّد العنوان العام، يشرع في التفسير بقوله: «اعلم أنّ هذه هي النعمة الأولى، أو الثانية أو الثالثة، أو موضوع أحكام النساء، الذي يخصّصه بعنوان مثل: أحكام الطلاق أحكام الحيض، أحكام الرضاعة»²⁴ وهكذا دواليك.

6-ترتيب الخطاب: من المعروف عند علماء السرد أنّ الأحداث ترتب في الخطاب ترتيباً طبقاً لما يقع في الخارج وهذا عامل أساسي من عوامل انسجام الخطاب، وإنّ تداخلت الأحداث ولم تنظم كان ذلك سبباً من أسباب تفكك الخطاب وعدم انسجامه.

اهتمّ المفسرون بترتيب الأحداث في الخطاب كل في حدود اختصاصه واهتمامه والدليل تفسير الزمخشري للآيات التاليات: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ قَالُوا أَذْغُ

لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ
فَأَفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ
صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٦﴾ قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ
تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ
الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شَبِيهَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ، فَذَبَحُوهَا وَمَا
كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٦٨﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٦٩﴾ فَقُلْنَا
أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٠﴾²⁵

حيث قال: فإن قلت: لم القصة لم تقصص على ترتيبها؟، وكان حقها أن يقدم ذكر
القتيل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها، وأن يقال: وإذا قتلتم نفسا فدرأتم
فيها، فقلنا ادبحوا بقرة واضربوه ببعضها، فقلت: كل ما قصص من قصص بني إسرائيل
إنما قصص تعديدا لما وجد منهم من الجنايات، وتقريعا لهم عليها، ولما جدد فيهم من
الآيات العظام، وهاتان قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع وإن كانتا
متصلتين متحدثتين: فالأولى لتقريعهم على الاستهزاء، وترك المسارعة إلى الامتثال
وما يتبع ذلك، والثانية للتقريع على قتل النفس المحرمة، وما يتبعها من الآية
العظيمة، وإنما قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتل؛ لأنه لو عمل على
عكسه لكانت قصة واحدة، ولذهب الغرض من تثنية التقريع.²⁶

الأحداث داخل النص غير مرتبة كما هي خارج النص وذلك لغاية أرادها المولى
عز وجل وهي جعل القصة قصتين، لتكرار التوبيخ مرتين على أساس جريمتين:
الأولى عدم تنفيذ أمره تعالى والامتثال إليه بسرعة، والثاني قتل النفس المحرمة، مما
جعلهما قصتين مختلفتي المقصد متحدثتي الموضوع والشكل، متصلتين بفضل الإحالة
الضميرية المتمثلة في (الهاء) المحيلة إلى البقرة، وهي العامل الأساسي في هذا
لتماسك بين القصتين وإدماجهما قصة واحدة غير مستقلتين استقلالاً تاماً.

الفائدة التي نجنيها من تفسير الرّمخسري، أن ترتيب القصة في الخطاب لم يوافق
العالم الخارجي لأنه حدث فيها تقديم وتأخير وقلب، وهذا سببه مقاصد المتكلم التي



زحلق الترتيب الأصلي وقلبت، وهو أمر لا يخفى على خبراء السرد وتحليل الخطاب، فالخاطب في هذه الآيات ثنائي الدلالة فهو موجه إلى بني إسرائيل ومقصديته تحذير المسلمين، كي لا يقعوا في الأخطاء التي وقع فيها هؤلاء، ولا يفعلوا ما فعلوه من منكر.

7-المجمل والمفصل: هو الإتيان بفكرة عامة تتضمن جملة من الأفكار الجزئية أو المعاني الفرعية، يتم تفصيلها لاحقاً أو العكس فيأتي التفصيل ثم يتلوه الإجمال وهي ظاهرة من ظواهر انسجام الخطاب، والآية التالية توضح ذلك: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيُسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾²⁷ «اعلم أن الملائكة لما سألو عن وجه الحكمة في خلق آدم، وإسكانه تعالى إياهم في الأرض وأخبر الله تعالى عن وجه الحكمة في ذلك عن طريق الإجمال بقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أراد الله أن يبين لهم أكثر ويفصل لهم المجمل، أي أن الكثير من فضائل آدم لم يكونوا على علم بها، حيث أن الله علم آدم الأسماء كلها ثم عرضها عليهم ليظهر بذلك كمال فضله، فيتأكد الجواب الإجمالي بالجواب التفصيلي»²⁸.
 إن الآيات: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾²⁹ هي تفصيل لقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهي علاقة تفصيل بإجمال وظاهرة من ظواهر تماسك نص التفسير وانسجامه.

لا تكون العلاقة بين الآيات دائماً تفصيلاً للمجمل، بل تتقلب أحياناً وتصير مجملًا للمفصل، وذلك لتحقيق غاية معينة، وهذا ما سنعرفه في تفسير ابن عاشور للآية التالية: قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾³⁰، أعقبت تفاصيل صفاتهم بتصوير مجموعها في صورة واحدة بتشبيه حالهم بهيئة محسوسة وهذه طريقة تشبيه التمثيل إلحاقاً لتلك

الأحوال المعقولة بالأشياء المحسوسة، لأنّ النفس إلى المحسوس أميل وإتماما للبيان بجمع المتفرقات في السمع المطالة في اللفظ في صورة واحدة، لأنّ للإجمال بعد التفصيل وقعا من نفوس السامعين³¹.

للتوضيح أكثر نقول إنّ التمثيل إجمال لتفاصيل وردت في الآيات من 8 إلى 16 ومنه فالعلاقة كما هي متجلية في الخطاب لا تسلك دوما نفس الاتجاه، من المجل إلى المفصل وإنّما قد تسلك سبيلا مخالفا من المفصل إلى المجل، ويأتي لتحقيق غاية معينة لأنّ الإجمال بعد التفصيل له وقع في نفوس السامعين³².

8- المناسبة والتناسب: إنّ التناسب بين الآيات هو عامل أساسي من عوامل تماسك الخطاب وانسجامه والمقصود بالتناسب هو علاقة آية بآية أخرى متقدمة عليها، والمفسر لا يمكن أن يبلغ غايته إذا لم يكن هناك تناسب بين الآيات، وعليه يسعى هذا الأخير للبحث عن العلاقة التي تربط بين الآيات، إذا حدثت قطيعة بينها مثل: أن تكون الآية السابقة كلاما عن القتال والآية اللاحقة لها كلاما عن إنفاق الأموال. يتساءل القارئ، ما العلاقة بين القتال، وإنفاق الأموال؟ وسنجد الجواب عن هذا السؤال عند الرازي لاحقا، أمّا المناسبة فتعني السياق، أو المقام الذي وردت فيه الآية أو الآيات، وفي كلّ الحالات، فالمناسبة كما هو التناسب، أداة من أدوات تماسك النص وانسجامه، لجأ المفسرون إلى هذه الظاهرة (المناسبة والتناسب) لتفسير الغامض وإظهار الخفي وتسطيح العميق، وإحضار الغائب، وإيصال المفصول.

ولتوضيح ما سبق نلجأ إلى تفسير الرازي الآية التالية: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾³³ حيث قال: «أعلم أنّ تعلّق هذه الآية من وجهين: الأول أنّ الله تعالى لما أمر بالقتال، والاشتغال بالقتال لا يتيسر إلاّ بأدوات وآلات يحتاج فيها إلى المال، وريما كان ذو المال عاجزا عن القتال، وكان الشجاع القادر على القتال فقيرا عديم المال، فلهذا أمر الله تعالى الأغنياء أن ينفقوا على الفقراء القادرين على القتال، والثاني يروى أنّه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾³⁴ قال رجل من الحاضرين والله يا رسول الله ما لنا زاد، ولا أحد يطعمنا



فأمر رسول الله ﷺ أن ينفقوا في سبيل الله وأن يتصدقوا، وألا يكفوا أيديهم عن الصدقة ولو بشق تمره فيهلكوا، فنزلت الآية وفق ما أمر به رسول الله ﷺ³⁵

يتبين لي أن الرازي في الحالتين يربط الآية وما قبلها بالمناسبة التي نزلت فيها وبالحالة التي نصت عليها وبالمقام الذي وردت فيه، فالأولى نزلت بمقتضى حالة المقاتلين المادية والثانية نزلت بمقتضى تأييد وموافقة لأمر الرسول ﷺ.

بالمجمل: فالآيتان جاءتا جواباً عن استفسار مباشر في الآية الثانية وغير مباشر في الآية الأولى فرضه المقام تقديره، كيف للمقاتل أن يقاتل الأعداء وهو لا يملك قوت يومه؟ وكيف يكون القتال والجيش ليس له التجهيز المادي لمواجهة الأعداء؟ والغرض من ذلك هو اقتراح حلّ للحالة المادية التي يعيشها المقاتلون المسلمون وعليه فمناسبة نزول الآيات والسياق الذي وردت فيه هما أداة لانسجام النص واتساقه، وبالمقابل لو أقحمت الآيات دون مراعاة المقام ولا السياق الذي وردت فيه ولا المناسبة التي نزلت فيها، لكانت مفككة الأوصال غامضة عارية دلالة وحاشا أن يكون كلام الله كذلك.

خاتمة: بعد دراسة معمقة لأهم كتب تفاسير القرآن الكريم، ورصد ما يمكن رصده من مؤشرات النصية وآليات التماسك وأدوات التلاحم والتضام، يسجل البحث التالي:

أن النصية مصطلح حديث بامتياز، لم تكن معروفة في التراث العربي بهذا المصطلح إلا أن ملامحها بارزة ومؤشرات واضحة فيه، وتحديدًا في تفسير القرآن الكريم، وقد تجلّى ذلك بفضل ما توفر في هذا الخطاب من أدوات الاتساق وآليات الانسجام المتمثلة في المناسبة والتناسب والتكرار، والإحالة الضميرية والإشارية، وموضوع الخطاب وترتيبه، وتنظيمه والعطف والمجمل والمفصل، وبذلك جاء النص التفسيري للقرآن الكريم متماسكا منسجما له دلالات واضحة، يؤدي وظيفة التواصل.

قائمة المراجع:

أ- القرآن الكريم:

-المصحف الشريف بالرسم العثماني، على رواية ورش، ط3، 2010، بيت القرآن حمص سوريا.

ب- الكتب:

- 1- جار الله الزمخشري، الكشاف، تحقيق، وتعليق، عادل احمد الموجود والشيخ علي محمد معوض، ط1. 1998. الرياض، المملكة العربية السعودية.
- 2- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير. الدار التونسية للنشر 1984 تونس.
- 3- محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ط2 2006 المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.
- 4- فخر الدين الرازي. مفاتيح الغيب. ط1. 1981. دار الفكر بيروت لبنان.
- 5- أبو الفضل جمال الدين محمد بن منظور، لسان العرب، ط1، 1992، دار الصادر بيروت.
- 6- محمد بن صالح العثيمين، شرح الأجرومية، ط1، 2014، دار الغد الجديد مصر.

تهميش:

- 1 ينظر أبو الفضل جمال الدين بن محمد بن منظور، لسان العرب، ط1، 1992، دار الصادر بيروت، 249/9
- ² ينظر محمد بن صالح العثيمين، شرح الأجرومية، ط1، 2014، دار الغد الجديد المنصورة، مصر، ص 247 و 263.
- ³ البقرة/ 25
- ⁴ البقرة/ 24
- ⁵ ينظر جار الله الزمخشري، الكشاف، تحقيق عادل أحمد وغيره، ط1، 1998 الرياض المملكة العربية السعودية، 228/1.
- ⁶ البقرة/ 125.
- ⁷ البقرة/ 124.
- ⁸ ينظر فخر الدين الرازي مفاتيح الغيب، ط1 ، 1981 ، دار الفكر، بيروت، لبنان، 4/ 52 وما بعدها.
- ⁹ البقرة/ 35.
- ¹⁰ ينظر الرازي مفاتيح الغيب 3/ 4.
- ¹¹ الأعراف/ 19.
- ¹² البقرة/ 58.
- ¹³ ينظر، مفاتيح الغيب 4/3.
- ¹⁴ البقرة/ 45.



- ¹⁵ البقرة/47.
- ¹⁶ ينظر الزمخشري الكشاف، 1/278.
- ¹⁷ البقرة/74.
- ¹⁸ الكشاف، 1/290.
- ¹⁹ البقرة/47.
- ²⁰ البقرة/48.
- ²¹ مفاتيح الغيب 3/55.
- ²² البقرة/48.
- ²³ محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس 1984.
- ²⁴ مفاتيح الغيب 3/3.
- ²⁵ البقرة/67 إلى 73.
- ²⁶ ينظر الكشاف، 1/290.
- ²⁷ البقرة/30.
- ²⁸ الفخر الرازي. مفاتيح الغيب. مج 1، 2/190.
- ²⁹ البقرة/32.
- ³⁰ البقرة/17.
- ³¹ ينظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، 1/302.
- ³² ينظر، محمد خطابي، لسانيات النص، ص 189.
- ³³ البقرة/195.
- ³⁴ البقرة/195.
- ³⁵ ينظر الرازي، مفاتيح الغيب، م 5، 3/146.